الخطابة في صدر الإسلام

أحمد مصطفى عبد الله محمد[1]

ستنا محمد علي حمد[2]

المستخلص :

تناولت هذه الدراسة الخطابة في صدر الإسلام ومن أهداف هذه الدراسة بيان سياق التركيب من خلال النصوص الخطابية في تلك الفترة وشرحها شرحاً أدبياً.واتبع الدارس في هذه الدراسة المنهج الوصفي وذلك لما تتطلبه طبيعة هذه الدراسة. وتوصل الدارس إلى نتائج منها: رصد القيم الجمالية والأدبية الموجودة في نصوص الخطابة عن طريق التحليل الأدبي البلاغي. – استخراج الصور الجمالية والبيانية الأكثر استخداماً و وروداً في الخطابة في تلك الفترة ومدى الاستفادة منها في توضيح الإضافات والتغيرات التي تطرأ عليها.

ABSTRACT:

The thesis attempts to study (khataba) at the beginning time of Islam. The aims of this study is to clarify the context, structure through the rhetoric text at that time and explained it elaborately.The researcher used the descriptive method so as to proof it.

The researcher found out results such as:1- Beautiful artistic and value.2- Pickout beautiful pictures and semantics which we used in a common way and the degree of benefit from it in additional declaration and other coming changes.

الكلمات المفتاحية:

البنية – الأثر – التكوين

1- كلية الدراسات العليا –جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

2-قسم اللغة العربية – كلية اللغات – جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

المقدمة :

الأدب العربي بشتى ضروبه يعتبر إرثاً تاريخياً تتناقله الأجيال ويتناوله النقاد بالبحث والتحليل ، وقد حفلت المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التي اهتمت بالأدب ، إلا أن حظ النثر من هذه البحوث يبدو ضئيلاً إذا ما قورن بالبحوث في غيره من الفروع ، وهذا ما دعاني لأن أبحث في موضوع النثر، ليكون هذا البحث دعماً لما سبقه من بحوث .

ولأن الخطابة كالشعر من أقدم الآثار الأدبية فقد خصصت بحثي هذا ليكون عن تطور فن الخطابة في القرن الأول الهجري ، لتكون دراستي رصداً للتطور الذي طرأ على فن الخطابة في ذلك العصر والذي يعد إمتداداً للعصر الجاهلي وإن أختلفت مواضع الخطابة فيه.

وظلت اللغة العربية تساير الرقي العلمي والأدبي والعمراني ، فنراها أداة الخطابة ، في منابر السياسة، والقضاء ، والمحافل على شتى أغراضها.

ولذا ينبغي أن تتطور التطور الأوفى ، فإذا نظرنا إليها بهذا الإعتبار علينا أن نعمل على تغذيتها بالصالح المفيد من الصَيغ ، والتراكيب.

أهمية البحث :

تأتي أهمية هذا الموضوع الذي يتناول الخطابة في صدر الإسلام

1- بيان دواعي الخطابة الدينية والسياسية والمحفلية .
2- التطور الذي طرأ على لغة الخطابة من خلال النصوص الخطابية .

أهداف البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى الوصول إلى مجموعة من الأهداف تتمثل في:

1- بيان سياق التركيب من خلال النصوص الخطابية في تلك الفترة وشرحها شرحاً أدبياً.
2- بيان القيمة الجمالية والأدبية الموجودة في نصوص الخطابة عن طريق التحليل الأدبي البلاغي.
3- بيان الصور الجمالية والبيانية الأكثر استخداماً وورداً في الخطابة في تلك الفترة ، ومدى الاستفادة منها في توضيح الإضافات والتغييرات التي تطرأ عليها.

منهج البحث :

المنهج الذي إتبعته في هذا البحث هو المنهج الوصفي مستعرضاً ذلك في ضوء التغير الاجتماعي والحضاري والسياسي والعوامل المؤثرة فيه من خلال الخطب ورصد ما طرأ عليها من تغييرات وتطور في فن الخطابة.

المحور الأول: الخطابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد – صلى الله عليه وسلم – يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أُتي من اللسن والفصاحة ما ملك به أزمة القلوب، وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصغَي له الأفئدة . وقد ظلّ طول مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن الكريم المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله ، مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة ليجزي بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدنية فرضت الخطابة في صلاة الجمعة والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُلم غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحفظ من هذا التراث القيم إلا – بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أوسقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة وأكثر هذه البقايا مما خطب به – صلى الله عليه وسلم

– بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع أي القرآن الكريم ، التي كانت تتنزل عليه، إذ نراها تارة واعظاً وتارة مشرعاً وقد يجمع بين الطرفين في نسيج بلاغي رائع[1].

ونحن نسوغ هنا أول خطبة خطبها – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة وذلك أنه لما هاجر من مكة إلى المدينة، أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف وكانت هذه الخطبة أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم – في الإسلام ، فخطب في هذه الجمعة فقال : (الحمد لله أحمده وأستعينه ، واستغفره ، و استهديه ، وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة ، على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس وإنقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصيهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم والمسلمَ ، أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله فأحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة ، من يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية ، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوي ذلك يودَّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأنجز وعده ولا خلف لذلك فإنه يقول عزوجل ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾[2] فتقوى الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيما . وإن تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبته، ويوقي سخطه ، إن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ، ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيى من حيى عن بينه ولا قوة إلا بالله فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد الموت فإنه من يصلح مابينه وبين الله يكفيه الله مابينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، يملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم))[3]

إن هذه الخطبة المباركة من حيث لفظها قد جمعت من الهداية والرشد والتوجيه السديد ما جمعت وكانت مؤثر بليغ التأثير في النفوس .

والخطبة فيها دعوة منه – صلى الله عليه وسلم– إلى تقوى الله وطاعته ، وقد استخدم – صلى الله عليه وسلم– في الخطبة ألفاظاً تدل على الهدى والرشاد مثل (أستهديه ، الهدى ، النور ، رشد والموعظة) كما استخدم الفاظاً تدل على الضلال مثل يكفره ، يعصيهما ، غوى.

وفي الخطبة أيضاً أساليب إقناع منها ما جاء على شاكلة أُسلوب الشرط (من يطع الله ورسوله فقد رشد) ومنها ما جاء على شاكلة الأمر (أوصيكم ، أحذروا ،

([1]) شوقي ضيف(د.ت) تاريخ الأدب العربي، المجلد الثاني، ص 144 – 145 .

([2]) سورة ق، الآية ٢٩

([3]) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(1988م) تاريخ الأمم والملوك ، ج2 ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان, ص7–8

اتقوا) كما استخدم فيها الطباق (تقوى ومعصية) ، (رشد ، وغوى)، (السر والعلانية) ، استهل الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته بحمد الله وطلب العون والمغفرة ثم بين الغرض من إرساله وهو هداية الناس، كما أكد على أهمية طاعة الله ودعا إلى تقوى الله في السر والعلانية ، وخطبته تتضمن قيمة توجيهية في توجيه الناس لتحسين علاقتهم بخالقهم والتنوع في الأسلوب لدفع الملل وإثبات القدرة على البلاغة .

ترقى البلاغة النبوية إلى أعلى مدارج الكمال البشري في حسن التأتي للمعاني بأدق ما يمكن أن تؤديه المفردات والجمل من دلالات ومعان تقع في النفوس موقعاً بالغاً من التأثير ما لا تنقضي عجائبية ولا يذهب بروائعه ورونقه مهما تقادم العهد وكثرة الترداد واذا كان من شأن العرب إن يتكلفوا القول صناعة ، يحسنها خطيبهم وحكيمهم فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد صنعه الله علي عينه يرسل الحديث سليقة وإلهاماً ، سليماً مما يعتري كلام الناس من خلل أو اضطراب ، أو عين أو حصر ، والجاحظ خير من وصف بلاغة – الرسول– صلى الله عليه وسلم – بقوله: (هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ...)

واستعمل المبسوط في مواضع البسط والمقصور في مواضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي ... وهو الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام[4].

إن الغرض من هذه الخطبة التي خطبها رسول الله – صلى الله عليه وسلم–إنها خطبة دينية تشريعية يبين فيها الرسول – صلى الله عليه وسلم– كيف يتجه الإنسان إلى ربه في سره وعلانيته وتكون تقوى الله الهدي وطريق النجاح ، وإن سعادة الإنسان في تقواه .

والخطبة موعظة رائعة يستهلها الرسول الكريم–صلى الله عليه وسلم– بتقرير وحدانية الله ، وإنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كي يخرجهم مما هم فيه من غوايا وضلالة ويدخلوا في رعايته الإلهية فلا يعملون عملاً بدونه فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور . والرسول – صلى الله عليه وسلم– في كل ذلك يستوحي القرآن الكريم وآياته وهي تقف منارات في موعظته ويستمد من اشعاعاتها ما يضئ به كلامه[5].

وفي السنة التاسعة من الهجرة قدم على الرسول – صلى الله عليه وسلم – عطارد بن حاجب بن زرارة بن عادس التميمي في أشراف من بني تميم منهم الأقرع بن حابس التميمي ، والزبرقان بن بدر وغيرهم كثير، فلما دخل وفد تميم المسجد نادوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من وراء الحجرات أن أخرج إلينا يا محمد . فآذى ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من صياحهم ، فخرج إليهم ، فقالوا يا محمد، جئناك لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : نعم أذنت لخطيبكم فليقل، فقام إليه عطارد بن حاجب فقال:(الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً ، نفعل فيها المعروف ، وجلعنا أعز أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاءُ لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار ، فيما أعطانا ، وإنا نعرف أقول هذا الآن . لتأتونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس).

([4]) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر(د.ت) البيان والتبيين ، ج2 ، دار الجيل ، بيروت ، ص 17 .

([5]) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، مرجع سابق، ص 116 .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لثابت بن قيس بن شماس: أخي بحارث بن الخزرج . قم فأجب الرجل خطبته . فقام ثابن فقال : ((الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض خلقه قضي فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ولم يك شيء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفانا من خير خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن برسول الله المهاجرين من قومه وذوي رحمه أكرم الناس أنساباً ، وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعالاً ، ثم كان أول الخلق إجابة – استجاب الله حين دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله ، منع ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا واستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم))[6].

إن الأمر في هذه الخطبة يقوم على الأدب التام بين المسلمين وأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وذلك في حضرته ، وقد اتسعت جنبات خطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– بما أخذ يشرح للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الأخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو بتضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة في السلوك السامي ، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد [7].

انتهجت الأسلوب الحجاجي تأثراً بالقرآن الكريم وقد ألزمتهم الحجة حتى أقروا بأن خطيبهم أخطب وشاعرهم أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما ، فرغ القوم أسلموا جميعاً: وكان الغرض من هذه الخطبة أن يلزم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الحجة والبرهان بأن الإسلام هو الذي يهدي إلى البر والخير والإصلاح ، وأسلوبها أسلوب حجاجي وهدفها هدف ديني دعوي يدعوا إلى دخول الإسلام وانتهاج نهجه وإتباع رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

فهاهو – صلى الله عليه وسلم – عند فتح مكة ، وبعد دخولها يقف على باب الكعبة ، ثم يقول :

((لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم ، أو مال يدعى ، فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وساقية الحاج. ألا وقتيل الخطأ مثل العمد ، وفيهما الدية مغلظة مائة من الإبل ، منها أربعون في بطونها أولادها)). [8]

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، الناس من آدم وأدم خلق من تراب ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [9]

يا معشر قريش ، ويأهل مكة ، ما ترون إني فاعلُ بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، ثم قال ((إذهبوا فأنتم الطلقاء)). [10]

هذه الخطبة من الخطب العامة حيث أن الخطابة فيها موجه إلى كل الناس ولا تكاد تمر مناسبة، يحتاج الناس فيها إلى التوجيه والبيان ، إلا ويقوم الرسول –

([6]) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص 189 – 190 .

([7]) شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، مرجع سابق، ص 106

([8]) المرجع السابق، ص 106

([9]) سورة الحجرات، الآية ١٣

([10]) محمد رضا – محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ص 319 – ورود نفس النص – السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، ص 109

صلى الله عليه وسلم – بالناس خطيباً ، يأمرهم وينهاهم ويعظهم ويذكرهم.

ولما أُعطي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما أعطي من عطايا حنين في قريش وقبائل العرب ، لم يكن في الأنصار منها شئ وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ! حتى قال قائلهم : لقى والله رسول– الله صلى الله عليه وسلم – قومه ! فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفي الذي أصبحت قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شئ قال : فأين أنت من ذلك يا سعيد فقال: يا رسول الله والله ما أنا إلا من قومي! قال أجمع لي قومك في الجظيرة، فخرج سعيد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاءه رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا إليه ، أتاه سعيداً ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فأتاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال : (يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتني عنكم وموجودة وجدتموها في أنفسكم! ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله وأعداءً فألف بين قلوبكم ! فقالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل ! قال: أما والله لو شئتم لقلتم ,ولصدقتم ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة في الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتم إلى إسلامكم أفلا ترضون ؟ يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير فترجعوا برسول الله إلى رحالكم ! فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الإنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار – فبكي القوم حتى اخضلوا لحاهم ، فقالوا رضينا برسول الله قسماً وحظاً[11].

والخطبة خير مثال للحوار العاطفي حيث خاطب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عواطف الأنصار . وكان – صلى الله عليه وسلم – يتنقل من مثل هذه الخطب إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً ومتضامناً في سبيل الخير وهو ما يستطيع عليه الجنة بنعيمها الخالد خير يكفل سعادة البشرية[12] .

هذه الخطبة تبين لنا أن الخطابة كانت لسان الدعوة وقد حلت بمنزلة كان الشعر يحتلها في الجاهلية والخطبة تمثل نموذجاً حياً للحوار العاطفي المؤثر الذي يظهر في قوله – صلى الله عليه وسلم– (أما والله له لو شئتم لقلتم ولصدقتهم) ، وقول – صلى الله وسلم – (وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، وقوله – صلى الله عليه وسلم – لو سلكت الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار ، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، فكانت النتيجة إن استجاب الانصار لهذا الحوار العاطفي المقنع وقالوا : رضينا برسول الله – صلى الله عليه وسلم– قسماً وحظاً) وقد لجأ النبي – صلى الله عليه وسلم – في هذه الخطبة إلى اسلوب الاستفهام ، اغضبتم يا معشر الأنصار ؟ أفلا يرضيكم ؟ يا معشر الأنصار ، ثم ذكر لهم فضل الدعوة الاسلامية عليهم وذكر بعد ذلك ، أفضال الأنصار عليه واشاد بعظمة الأنصار ومنزلتهم في نفسه .

([11]) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، مرجع سابق، ص 178.

([12]) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 117 .

ومن أروع ما يصور ذلك خطبته – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع ، وذلك أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حجّ في السنة العاشرة ودع فيها إلى المسلمين ولم يحج غيرها خرج لها في يوم السبت لخمس بقين من ذي الحجة وكان معه جمع عظيم يبلغ ألفاً ودخل مكة ضحى ، ولما رأى البيت قال : اللهم زده تشريفاً ، وتعظيماً ، ومهابة وبراً ، ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود، وصلى ركعتين عند مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام ، ثم شرب من ماء زمزم ، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات فيها وفي التاسع منه توجه إلى عرفة وهناك خطب خطبته المشهورة التي بين فيها الدين كله أسه وفرعه قال : صلى الله عليه وسلم – : (الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد

(أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا) .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم فأشهد ، فمن كانت عنده أمانة فاليؤديها إلى من أئتمنه عليها إن ربا الجاهلية موضوع، وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة** والسقاية** والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم [13].

أيها الناس إن النسئ زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ليواطئوا عدت ما حرم الله ، إن الزمان قد استدار كهئية يوم خلق الله السماوات والأرض ، وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم وثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادي وشعبان الأ هل بلغت. اللهم فأشهد .

أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدٌ تكرهونه بيوتكم إلا بإذن ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أنتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً . ألا هل بلغت ؟ اللهم فإشهد .

أيها الناس إنما المؤمنون إخوة لا يحل لإمرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟اللهم

(*) السدانة : خادم الكعبة – المعجم الوجيز – مادة خدم – ص 307 .

(*) السقاية : تستقي الأرض والزرع – آله تدار على محور لرفع الماء إلى الحقل ، لمعجم الوجيز مادة سقى، ص 315.

([13]) الشيخ محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ، ص 243 .

فإشهد . فلا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله ، وسنتي ألا هل بلغت ؟ اللهم فأشهد .

أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ اللهم فأشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب[14].

أيها الناس إن الله قد قسّم لكلّ وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر من أدعى إلى غير أبيه أو أولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً والسلام عليكم ورحمة الله))[15].

هذه الخطبة كانت جامعة مانعة ، أوضح فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حرمة البيت الحرام ، والشهر الحرام وحرمة دماء المسلمين وأموالهم ، وحرّم فيها الربا ، وبيّن الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء. إلى أن قال – صلى الله عليه وسلم – وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، أسمعوا قولي وأعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ فأشهد).

هكذا ، فإن الخطابة كانت لسان الدعوة وترجمانها حين كان التفاخر ، والتباهي والنعرات ، والعصبيات الجاهلية . فما كان يفصح عن تلك العواطف الهوجاء مثل الشعر امتازت هذه الخطبة بالإيجاز البليغ لأنه – صلى الله عليه وسلم – أوتي جوامع الكلم ، فكأنما الألفاظ تقف شاخصة أمامه ليختار منها ما يناسبه ، كما ظهرت منها لهجة المودع (لعلي لا ألقاكم) والاستفاضة الواضحة من الفاظ القرآن الكريم .

ويحذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الشيطان وغوياته محرماً التلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمرياً، يتآلف من اثني عشر شهراً، منها أربعة حرم ، ذو القعدة والمحرم ورجب ، ويرفع من شأن المرأة ، ومعاني علاقتها بزوجها فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لهما كرامتهما ، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبري من الأمة.

وهذه الخطبة وسابقاتها يصوران دقة حسن منطق الرسول – صلى الله عليه وسلم – في خطباته ، وأنه لم يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف والذي لا شك فيه أنه بعفوه وقوي فطرته ما تنقطع دونه رقاب البغاء [16] .

إنه صلى الله عليه وسلم – استعمل المبسط في مواضع البسط والمقصور في مواضع القصر ، وهجر القريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه ، لم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق هو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول.

وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى المعاونة [17] .

لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ولم يقوم له خصم ولا اقحمه خطيب بل يبرّ الخطب الطوال بالكم القصار ولا يتلمس إسكات الخصم إلا بما

([14]) المرجع السابق، ص 244 – 264 .

([15]) الجاحظ ، البيان والتين ، مرجع سابق، ص 33.

([16]) شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 120 .

([17]) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص 17

يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلاح إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا اقصر لفظاً ولا اعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقفاً، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى ، من كلامه – صلى الله عليه وسلم – فهو الذي فتق معاني الخطابة الدينية التي يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رسمها ، وفجر ينابعها [18] .

ومن هنا كانت المحاولة في الدخول إلى ساحة البلاغة النبوية من خلال نص كريم غني بمعانيه السامية ومضامينه السديدة ، مسوغ بالإسلوب البليغ والأداء الدقيق .

فالنقف متأملين دلالات هذا النص البلاغية للكشف عن جماليات توظيف الفن البلاغي الذي يرد في الحديث النبوي بعيداً عن معاناة للصنعة والاقحام أو ابتغاء الحلية اللفظية التي لا غني فيها ، ومما حملني على هذا إني لأجد كبير عناية بالنصوص واحتفالها بتحليل صيغها وتراكيبها وبيان المواقع الدقيقة للفنون والأساليب البلاغية متميزة عن وجودها في كلام سائر الناس كي يقف القراء على لون من ألوان الفن البلاغي الخطابي الذي في الوقت ذاته موازنة ضمنية لتوظيف فنون البلاغة بقدرات تعلو حتي تبلغ حد الإعجاز وإسفاف يضئ تمثيل شكلي ورصف لفظي وفحواه فكري ... فالإيجاز في البلاغة القرآنية والنبوية غيره في موضع آخر ، وكذلك الإطناب ، فإن دلالته المعنوية والفنية غيرما توحي به هذه المظاهر في مواطن آخر قد يكون به حاجة إلى الاطناب أو لا يكون وهو في جميع الأحوال يكشف عن خلل مرئي ، أو محسوس به هنا وهناك في مواضع شتي من النص ومن هذه الخطبة يتحقق من خلال سوقها للعبارة الفنية المستوفية لكل متطلبات البلاغة ، ضمن ثلاثة مسارات ، وهي صفاء اللفظ ووفاؤه إفراداً وتركيباً . وضوح المعني وظهور المغذى، رسائل التشويق والالفاظ بعثاً للنشاط وإجابة للداعي ومنها القولي ومنها الحسي [19].

يستهل الرسول – صلى الله عليه وسلم – خطبته بقوله ((أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا ...)) .

ولهذا أول ما نلحظ هذا النداء القريب إلى النفوس إذا ستغني عن أداة النداء (يا) وغيرها تحقيقاً لهذا القرب والتلاحم مع أبناء الأمة الذين زالت الهوة بينهم وبين معلمهم وهادئهم بأدق النداء وأعذبه ليستميل قلوبهم إلى ما يلقى عليهم من حسن التوجيه وسديد الإرشاد[20] .

(أسمعوا قولي) اسمعوا : فعل أمر وللأمر وجهتان في التعبير البلاغي حقيقي ومجازي وللمجازي أغراض متعددة ينبغي ان نحدد مدلول الأمر الحقيقي والمجازي لنتبين في أي المسارات تتجه هذه الصفة، الأمر الحقيقي " صيغته موضوعة لطلب الفعل استعلاماً لتبادر الذهن عن سماعها إلى ذلك وتوقف ما سواه على القرينة . وإني أرجح أن الأمر في هذا الموضوع مجازي ، وذلك بدلالة الا ستهلال الرقيق ، فلا – يسوغ أن النداء يحل في تضاعيفه من معاني التودد والتلطف ثم يبعثه مباشرة بما يدل على الأمر خشية أن يقع ذلك في نفوس سامعيه موقعاً لا يرتضيه ولما يحصل من التفاوت بين الرقة والتلطف وبين الشدة التي يحلمها الأمر الحقيقي .

أقول ذلك في غير أن يتبادر إلى الذهن أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا قبلا له بأن يأمر قومه بما

([18]) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 121

([19]) عزالدين على السيد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، ص 60

([20]) القزويني، التلخيص في علوم البلاغة ، شرح وتحقيق: عبد الرحمن البر قوني، الطبعة الثانية ، ص 12.

يشاء فيطاع ، وهذه صورة تناغم بياني بين أجزاء المقطع وتلك خصوصية البلاغة النبوية الكريمة [21].

((فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ...))

من الملاحظ في استخدام (إن) في هذا الموضوع إنها جاءت في عقب جملة سابقة فقد كان مجئ (إن) ضرباً من ضروب توثيق الجملتين لتوصل أحدهما بالأخرى، فتراهما بعد دخولهما كأنها قد أفرغا من قالب واحد .

وقد جاء التوكيد في مقاطع الخطبة بأكثر من وسيلة وهي أداة التوكيد (إن) والتكرار وتقديم ما حقه التأخير والقصر وأدوات التحقيق والتوكيد (قد وكل) ومما جاء مؤكداً بأن ((إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام ..))

((وإنكم ستلقون ربكم .....))

((وإن بالعباس بن عبد المطلب ..)) . ((إن كل دم في الجاهلية موضوع ...))

((وإن أول دمائكم .....)) .

وما جاء مؤكد بالتكرار : ((كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا ..))

تصور هذه المقاطع أداة التوكيد ؛((إن)) التي تتضمن الايصال والتثبيت وإضافة حسم التردد والشك في القبول والتلقي . ولقد ذهب البلاغيون إلى أن استخدام أداة توكيد واحدة ضمن العبارات هو لحسم الشك والتردد [22] وهو خبر طلب انكاري ابتدائي.

إن البيان النبوي قد توخي الايقاع المتناغم الذي يكسب العبارة جمالية محببة إلى النفس من خلال توالي (دمائكم) أموالكم – عليكم : إذن لا ننفي هذه الصيغة الجمالية التي هي من أجمل البلاغة النبوية التي اجتمعت على صفات الخلوص والقصد والاستبقاء[23] .

الخطابة في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

أولاً : الخطابة في عهد ابي بكر الصديق رضي الله عنهما :

هو أبو بكر عبد الله بن عتيق بن أبي قحافة صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يجتمع نسبه مع نسب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في مرة بن كعب ولد بعد مولد النبي – صلى الله عليه وسلم – بسنتين وبضعة أشهر ونشأ من أكرم قريش خلقاً وأرجحهم حلماً ، وأشدهم عفة ، وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرهم .

صحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل النبوة ، وكان أول من آمن به من الرجال وصدقه في كلّ ما جاء به، ولذلك سمي بالصديق هاجر معه إلى المدينة ، وشهد معه أكثر الغزوات ، وما زال ينفق ماله وقوته في معاضدته حتى إنتقل صلى الله عليه وسلم – إلي الرفيق الأعلي[24].

وقد نوه القرآن الكريم بذكره فقال جل شأنه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ [25]

هو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدي القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية وقد أُثرت عنه خطب كثيرة تدل دلالة واضحة على شدة سكينه في الدنيا ويقظته وصدق حسه ، وأنه حق كان أجدر

([21]) محمد محي الدين عبد المجيد ، الايضاح في علوم البلاغة ، ص 10

([22]) كمال الدين الزمكاني، البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن الكريم ، ص 18 – 19

([23]) مصطفي صادق الرفاعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 372.

([24]) السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، ج2، ص 111– 112 .

([25]) سورة الليل ، الأية4–7 .

أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بخلافته [26].

كان فصيحاً بليغاً خطيباً مفوهاً قوي الحجة شديد التأثير ، لمّا توفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في أرضه بالسنح فتواترت إليه الرسل فأتي وقد ذهل الناس فكانوا كالخرس ، وتفرّقت أحوالهم واضطربت أمورهم فكذب بعضهم بموته – صلى الله عليه وسلم – وصمت آخرون وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وحق لهم ذلك للذرية العظمة لهم ذلك الذرية العظمى والمصيبة الكبرى التي هي بيضة العقر وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– ممن كذب بموت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأما عثمان – رضي الله عنه – كان ممن أخرس فجعل لا يكلم أحداً فيؤخذ بيده فيجاء به فينقاد ، وأما على – رضي الله عنه – فلبط بالأرض فقعدوا لن يبرح البيت حتى دخل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – وهو في ذلك جلد العقل والمقالة فأكب عليه ، وكشف عن وجهه ومسحه قبّل جبينه ، وبكى بكاءً شديداً ، ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم وعظيم سكراتهم ، قام فخطب خطبة جلها الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – قال فيها: ((أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث وأن المقول كما قال وأن الله هو الحق المبين)) . ثم قال : ((أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، إن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً ، إن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه فمن أخذ بها عرّف، ومن فرّق بينهما أنكر ، أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ويفتننكم عن دينكم ، فعالجوه الذي تعجزونه ،ولا تستنكر فيلحق بكم [27] ، ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [28] وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [29] ثم تلا ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [30] ، فتاب من كذبوا بموته رضوان الله عليهم الى رشدهم وحلف رجالاً من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – أنهم ما علموا بالآيات نزلت حتى قرآها أبو بكر الصديق رضي الله عنه [31].

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : ((يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم ، ولن يجترئي مجتريء على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العزّ والثروة ، وأولوا العزّ والمنعة والتجربة وأولو بأس والنجدة ، إنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقص عليكم أمركم فإن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير)). فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان في قرن . والله لا ترض العرب أن يؤمروكم ونبيها في غيركم .

([26]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، مرجع سابق، ص 122 .

([27]) زهر الأدب ، الحضري أبو اسحاق، المجلد الأول، ص35، 36

([28]) سورة الزمر، الآية 30

([29]) سورة آل عمران، الآية 144

([30]) سورة القصص، الآية 88

([31]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، ص 122.

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا . فقالا ولا والله لا نحول هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أبسط يدك نبايعك فلما ذهب ليبايعوه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، ثم بايعته الأوس ثم بايعته أسلم ثم أقبل الناس من كلّ جانب يبايعوه[32].

ومن خطبته يتضح لنا أنه هو الذي اقنع الناس على أن يجتمعوا على رجل من قريش خوفاً على الأمة من الفرقة والطمع في الملك.

ولما بُويع أبو بكر في الثقفية وكان الغد ، جلس أبو بكر علي المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبو بكر ، فحمد الله وأثني عليه بما هو أهله ثم قال : ((أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت إلا عن رأي وما وجدتها في كتاب الله عاهده إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكني قد كنت أرى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله– صلى الله عليه وسلم – فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ، وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوا)) .

فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة الثقفية ، ثم خطب أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – فحمد الله واثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: ((أما بعد أيها الناس ، فأني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي منكم الضعيف عندي حتي آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله الذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا أعصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله))[33].

قد بين أبو بكر الصديق رضي الله عنه – في هذه الخطبة أنه ليس بأفضل المسلمين ، ثم فتح الباب للنقد والثناء والمشورة " إن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فقوموني " كما بينت الخطبة بعده عن الاستبداد والطغيان والتواضع لشعبه .

وأخذت تتجلى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة في أنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى جهة من حرب الروم كما أمر الرسول وأستنّ سنة الوصية الجيوش الفاتحة ، وذلك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ضرب قبل وفاته على أهل المدينة ومن حولهم بعثاً وفيهم عمر بن الخطاب أمر عليهم أسامة بن زيد فلم يجاوز أخرهم الخندق وحتى قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : أرجع إلى خليفة رسول الله – فأستأذنه ، يأذن لي أن أرجع بالناس ، فإن معي وجوه الناس وحدتهم ولا آمن على خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم وثقل رسول الله واثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون [34].

وقالت الأنصار : وإن أبي إلا أن نمضي فأبلغه عنا ، وأطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة، فخرج عمر يأمر أسامة وأتى أبو بكر فأخبره بما قال أسامة فقال أبو بكر : لو خطفتني الكلاب والذئاب لم

(32) الطبري، تاريخ الملوك، المجلد الثاني، ص 242 – 234

(33) الطبري ، تاريخ الملوك، مرجع سابق، ص 122 – 137 .

(34) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مج 4 ، ص 123

أرد قضاء قضى به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : فإن الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي وأمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً – فأخذ بلحية عمر، فقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ، وتأمروني أن أنزعه ، فخرج عمر بن الخطاب الى الناس فقالوا : له ما صنعت ؟ فقال : أمضوا ثكلتكم أمهاتكم ! ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله ! ونادى منادي أبو بكر ليتم بعث أسامة الا يبقين بالمدينة أحداً من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالحرف وقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : ((يأيها الناس أنما أنا مثلكم ، إني لا أدري لعلكم ستكلفونني ما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطيق ، وأن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الافات ، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني ، وإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة بسوط فما دونها ، ألآ وإن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا أتاني فأجتنبوني لا أوثر في أشعاركم وإبشاركم وانتم تغدون وتروحون في أجل وقد غيّب عنكم علّمه ، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الرجل ألا أنتم في عمل صالح فأفعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى إنقطاع الأعمال ، فإن قوم نسوا آجالهم وجعلوا أعمالكم لغيرهم فإياكم أن تكونوا أمثالهم الجدّ الجدّ والوحي الوحي والنجاء النجاء ، فإن ورائكم طالباً حثيثاً آجلاً أمره سريعاً . أحذروا الموت واعتبروه (بالآباء والأبناء والإخوان ولا تغبطوا لأحياء إلا بما تغبطون به الأموات [35].

يبين أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – في هذه الخطبة طبيعة خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإنه ليس خليفة عن الله بل عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإنه بشر غير معصوم ولا يطبق مقام الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولذلك فهو متبع وليس مبتدع ، كما يبين ، واجب الأمة في مراقبة الحاكم وتعينه في إحسانه وصلاحه وتقومه ، وتنصحه وفي غير ذلك ، كما بين ، أن النبي عزل بين الأمة ، فلم يظلم أحداً ، ولذلك ليس لأحد عن النبي مظلمة صغيرة أو كبيرة ، فمعني هذا إنه سوف يسير على نفس المنهج بنشر العدل ، ويبتعد عن الظلم ، ومن ثم على الأمة أن تعينه على ذلك ، وإذا راه أحداً غاضباً ، فعليه أن يتجنبه وذلك لأن الشيطان ، يعتري الصديق ، ويعتري جميع بني آدم ، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

والمقصود بكل ذلك ، أن الصديق ليس معصوماً كالرسول – صلى الله عليه وسلم – وهذا حق .

وقد وظّف الصديق قوة البيان في خطبته وحديثه للأمة، وقد كان أفصح خطباء النبي – صلى الله عليه وسلم– فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلامه كقوله :(احرص على الموت توهب لك الحياة) أو قوله: (اصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة) وقوله :(الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله) فهذه الكلمات تتسم بالبلاغة – وحسن التعبير ، وكا نت له لباقة حتى في الخطاب إلى جانب بلاغته وفصاحته.

وفي ذات المرات كان ما شياً وأسامة راكباً وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – والله لتركبن أو لأنزلن فقال : والله لا تنزل والله لا أركب ، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها عنه سبعمائة حسنة له

([35]) الامام الطبري، تاريخ الأمم والملوك ، مرجع سابق، 246

وسبعمائة درجة ترفع له وترفع عنه سبعمائة خطيئة حتى إذا إنتهى قال : إن رأيت أن تعينني بعمر فأفعل فأذن له ثم قال: (يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فأحفظوها عني ولا تخولوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة و لا تذبحوا شاة ،ولا بقرة ، ولا بعيراً ، ألا لما كله وسوف تمرون بأقوام ، فقد فرغوا أنفسهم له في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شئياً بعد شئ فأذكروا اسم الله عليها .وتلقون أ قواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأحفوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله).

وهو في وصاياه ويصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معالمة المسلمين لم يقلبون عليهم، إذا نطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يقدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امراة ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالاً إلاّ لمأكلة وغيرها من الوصايا التي ذكرت وكذلك الأمر في خطبته السابقة بجيش أسامة بن زيد حين سار على مشارف الشام [36].

وإذا أخذنا نقرأ في خطبته وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن الكريم وكلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على شاكلة قوله في خطبة له (إن الله عزوجل لا يقبل من الأعمال إلا أريد به وجهه ، فأريدوا الله وبأعمالكم اعملوا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وخطأ ظفرتم به وضرائب أديتموها وحلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية لحين فقركم وحاجاتكم اعتبروا عباد الله بمن مات منكم وتفكروا في من كانوا قبلكم أين كان أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون؟ وأين الذين كانوا لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب ! قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً. قد تُركت عليهم القالات ! الخبثيات الخبيثين والخبيثون للخبيثات . وأين الملوك ؟ الذين أثاروا الأرض وعمروها ! قد بعدوا وانسى ذكرهم وصاروا كل شيء.

ألا إن الله قد أبقى عليهم التبعات وقطع عنهم الشهوات ومضوا والأعمال أعمالهم والدنيا لغيرهم وبقينا حلفاً بعدهم ، فإن نحن اغتررنا بهم نجونا وإن اغتررنا كنا مثلهم ! اين الوضأ الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم أين الذين بنوا المدائن وحصونها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ! قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟ أين من أبنائكم وأخوانكم ؟ وقد انتهت بكم آجالكم فوردوا على ما قدموا ، فحلوا عليه وأقاموا للشهوة والسعادة فيها بعد الموت . ألا أن الله لا شريك له وليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته وإتباع أمره وأعلموا أنكم عبيد مدينون ، و إن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما أنه لا خير بخير بعده النار ولا شرّ بشرّ بعده الجنة)[37].

وواضح مما تملثنا به من خطابة أبوبكر الصديق – رضي الله عنه – إنه لم يلهج بسجع وإنما كان يلهج بكلام جزل واضح الدلالة عما في نفسه ، وكان يتخير لفظه [38].

ومما يدل على ذلك أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : (أتبيع الثواب؟ فأجابه لا . عافاك الله . فتأذى أبو

([36]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 123.

([37]) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص 245 .

([38]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 143 .

بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يظن أن النفي مسلّط على الدعاء فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل لا وعافاك الله . وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفة من بعده [39].

مما سيق في تلك الخطب أن أبا بكر الصديق في خطبته التي بويع فيها بالخلافة فيها الكثير من الألوان البلاغية مثل قوله : (أيها الناس) هذا نداء للتشبيه حذفت أداته .

(فإني قد وليت عليكم) أسلوب مؤكد بمؤكدين إن وقد والفعل الماضي وكذلك المضارع المبني للمجهول قوله وليت عليكم ويبنى الفعل للمجهول وحذف الفاعل لغرض بلاغي وهو العلم به ويقصد المسلمون الذين بايعوه . (لست بخيركم) تعبير يدل على شدة التواضع وسمو أخلاقه – رضي الله عنه – والتعبير من باب التواضع هو مؤكد بحرف الجر الزائد الباء في بخيركم.

(فإن احسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني) أسلوب شرط يوضحان حق الحاكم على الرعية .

وبين العبارتين مقابلة وسجع يعطي جرساً موسيقياً(أحسنت وأسأت) ،(الصدق أمانة والكذب خيانة) . سجع ومقابلة توضح ورعة – رضي الله عنه – وبشاعة الكذب .

والضعيف فيكم قوي عندي حتي أريح عليه حقه إن شاء الله ...) كناية عن المساواة التامة بين الناس وفيها مقابلة توضح المعني بالتضاد (أربح عليه حقه) تصوير الحق الضائع كأنه إنسان خلق حائر ، فإذا ما عاد إلى صاحبه هدأ واستقر ، وهي صورة توحي بشارة العدل في استقرار الأمور (فإنه لا يدعه قوم ألا ضربهم الله بالذل) في العبارة مواطن جمال عديدة منها إنها تعليل لما قبلها وأسلوب مؤكد بمؤكدين (إن وأسلوب القصر) بـ (لا وإلا) وفيها تصوير الذل سلاحاً يضرب به كل ما ترك الجهاد في سبيل الله وسر جمال الصورة التجسيم ، وكلمة قوم نكرة للعموم والشمول ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء) أسلوب القصر بـ (لا وإلا) يؤكد على أن المحسن والمصائب لا تنتشر إلا تشيع الرذيلة بين الناس.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله أسلوب إنشائي غرضه النصح والحث، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)) .

أسلوب أيضاً إنشائي غرضه النصح والحث ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، مقابلة جميلة توضح إن طاعة الحاكم مرهونة بطاعة الله ورسوله وقد تميز أسلوب تلك الخطبة بالإيجاز والتركيب مع الوضوح وسهولة اللفظ والتأثر بمعاني وأساليب القرآن والحديث الشريف والتنوع بين الخبر والإنشاء وقلة الخيال وذلك لإعتماد الخطبة على الاقناع العقلي.

والجمال الموسيقي المتمثل في اختيار اللفظة الدقيقة في موضوعها والسجع غير المتكلف والجناس ، كما جاء فيها تأكيد المعني بإسلوب التوكيد المختلف، وقد قامت كثير من العبارات أبو بكر الصديق على الموازنة مثل (فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني) (أطيعوني ما أطعت الله فيكم..) كل هذه الموازنات السابقة تبرهن أن دستوره ومنهجه في الحكم قائم على العدل والديمقراطية ومعناها.

ثانياً : الخطابة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب القرشي ثاني خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – واول من تسمي في الخلفاء بأمير المؤمنين وأول من أرخ بالتاريخ الهجري مصر الأمصار ودوّن الدواوين، ولد – رضي الله عنه – بعد مولد النبي – صلى الله عليه

([39]) الجاحظ، البيان والتبين، مرجع سابق، ص 261.

وسلم– بثلاث عشرة سنة، حضر مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الغزوات كلها ثم لما قُبض – صلى الله عليه وسلم – أعان أبو بكر الصديق على توليه الخلافة ، ولما أحس أبو بكر – رضي الله عنه– بالموت في عهد بها إليه[40].

وكان ذلك في جمادي الأخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة فقام بأعبائها خبر قيام وأتم جميع ما شرع فيه أبو بكر من فتح ممالك كسرى وقيصر[41] قتله غيلة الغلام الشقي أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة المجوسي لأنه لم ينصفه على زعمه في تخفيض ما يدفعه لسيده من أجرة عمله ، وكان قتله سنة 23هـ ومدة خلافته عشر سنين وسنة أشهر وثمانية أيام.

وكان رضي الله عنه – من أبين الناس منطقاً ، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صواباً ، وحكمة ، وأرواهم للشعر ، وأنقدهم له [42] وقد كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا : إنه كان يخرجوا الضاد من شدقيه شاء[43].

ومن خطبه – رضي الله عنه – خطبته لما وُلّي ، إذ صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : (إن الله عزوجل قد ولاني أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم ، وأني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يجد مني حرصاً عنده ، كما حرصي عند غيره ، وإن يعنيني عليه وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ، وإني أمرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عزوجل ، ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله وإنما العظمة لله عزوجل وليس للعباد منها في شئ ، فلا يقولن أحدُ منكم : إن عمر تغير منذ وُلّي .

أعقل الحق من نفسي وأتقدم ، وأبين لكم أمري فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة ، أو عتب علينا في خلق ، فليودني ، فإنما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم ، وحرماتكم ، أغراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هواة وأنا حبيب إلى صلاحكم عزيز علي عتبكم . وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلد لأزرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء من الله به إليه ، إن الله عزوجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مسئول عن أمانتي ، وما أنا فيها . ومطلع علي ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله ، لا آكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء. وأهل النصح منكم للعامة لست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله) [44].

يتقدم سيدنا عمر بن الخطاب في خطبته هذه بأجمل العبارات وأفصح الكلمات طالباً التوجيه من رعيته مع مخافة الله في السرّ والعلن ويوضح بأنه ينجرف نحو الحق إينما كان وإن كان من نفسه كما يوصي بأن لا يحمل المسلمين على بعض حتى يحتاجون إلى حكم بل يريد الأمر أن يكون خالي من الإعتداءات المحتملة من قبل القوم كما يوصف لهم البلد الذي هم فيه بأنه لا زرع فيه ولا ضرع فيه.

ومن عجيب خطبه خطبته بعد أن عقدت له الولاية إذ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ((أيها الناس فإني داع فأمنوا ، اللهم إني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق إبتغاء وجهك والدار الآخرة وأرزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة

([40]) السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، مج2 ، ص 114.

([41]) السيوطي، عبد الرحمن بن أبو بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولي، د.ن، ص 113.

([42]) السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، مرجع سابق، ص 114.

([43]) الجاحظ، البيان والتبين، مرجع سابق، ص 62.

([44]) المعجم الوجيز، مادة هود، اللين والرفق .

والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا إعتداء عليهم ، اللّهم إني شحيح فسخني في نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، وأجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم أرزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثير الغلظة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كلّ حين اللهم اني ضعيف عند العمل بطاعتك فأرزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكن إلا بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وأرزقني الخشوع فيما يرضيك عني والمحاسبة لنفسي وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم أرزقني التفكير والتدبير لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك مابقيت ، إنك على كل شيء قدير[45].

أسلوب هذه الخطبةو وموضوعها الوعظ والإرشاد والتوسل إلي الله وهي عبارة عن دعاء .

وفي السنة الثامنة عشر من الهجرة أصابت الناس مجاعة شديدة ولذبة وجدوب وقحوط وذلك هو العام الذي يسمى بعام الرماد ، وكان الناس بذلك وعمر كالمحصور على أهل الأمصار ، حتى أقبل بلال بن الحارث المذني فأستأذن عليه ، فقال : أنا رسول الله إليك يقول لك رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لقد عهدتك كيساً وما زلت على رجل ، فما شأنك ! فقال : متي رأيت هذا ؟ قال : البارحة ، فخرج فنادى في الناس الصلاة جامعة! فصلّ بهم ركعتين ثم قال : (أيها الناس : أشهدكم الله هل تعلمون مني أمراً غيره خير منه ؟ قالوا اللهّم لا ، قال : فإن بلال بن الحارث بزعم ذيه ذيه ، فقالوا : صدق بلال فاستغث بالله وبالمسلمين فبعث إليهم وقال عمر: الله أكبر بلغ البلاء مدته فإنكشف ما آذن لقوم في الطلب إلا وقد رفع عنهم البلاء ، فكتب إلى أمراء الأمصار اغيثوا أهل المدينة ومن حولها فإنه قد بلغ جهدهم وأخرج الناس إلى الإستقاء ، فخرج وخرج معه العباس ماشياً ، فخطب فأوجز قال : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [46] اللهم إني استغفرك وأتوب إليك ، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آياته وكبار رجاله فإنك تقول ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [47].

فحفظتهما لصلاح ؟ أبيهما ، فأحفظ اللهم نبيك في عمه اللهم أغفر لنا إنك كنت غفارا ، اللهم إني الراعي فلا تهمل الضالة، ولا تضع الكسيرة بمضيعة ، اللّهم قد ضرع الصغير ، ورق الكبير وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم أغثهم بغيثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا . " ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [48] ثم صلى ثم جلس على ركبتيه وقال " اللهم أغفر لنا وأرحمنا وأرضى عنا " ثم إنصرف . فما برحوا حتى علقوا الجزاء وقلصوا المآذر وطفق الناس بالعباس يقولون : هنيئاً لك ساقي الحرمين[49].

تمتاز الخطبة بوحدة الموضوع وجوده العبارة وترابط الألفاظ والتأثر بمعاني القرآن الكريم وألفاظه في قوله (إنه كان غفّارا) وإستشهادها بآيات القرآن الكريم.

ولما بلّغه أن قومه يفضلونه على أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وثب مغضباً حتى صعد المنبر فحمد

([45]) السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ص 115

([46]) سورة نوح، الآية 10 .

([47]) سورة الكهف، الآية 82.

([48]) سورة يوسف، الآية 87

([49]) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ص 508 .

الله وأثنى عليه وصلى الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – ثم قال : (أيها الناس إني سأخبركم عني وعن أبي أبكر ، إنه لما توفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إرتدت العرب ومنعت شاتها وبعيرها فأجمع رأينا كلنا أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – إن قلنا له : يا خليفة رسول الله إن رسول الله– صلى الله عليه وسلم – كان يقاتل العرب ، بالوحي والملائكة يمد الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم بيتك ومسجدك ، فإنه لا طاقة لك بقتال العرب . فقال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – (أوكلكم رأيه على هذا ؟ فقلنا : نعم .فقال : والله لأن أخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلى من أن يكون هذا رأئي ! ثم صعد المنبر فحمد الله وكبره وصلى على نبيه – صلى الله عليه وسلم – ثم أقبل على الناس فقال : (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، أيها الناس إن أكثر أعداؤكم وقل عددكم ، ركب الشيطان منكم هذا المركب ! والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون ، قوله الحق ووعده الصدق﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [50] أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى أبلي بنفسي عزراً أقتل قتلاً ، والله وأيها الناس لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم الله وهو خير معين[51].

ومن عيون خطبه – رضى الله عنه – خطبة في ذم الدنيا إذ يقول : " إنما الدنيا أمل مخترم، وأجل منقض ، وبلاغ إلى دار غيرها وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله إمرءاً فكر في أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه وبئس الجار الغني يأخذ بما لا يعطيك من نفسه فإن أبيت لم يعزرك ، وإياك والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ، ومؤديه إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فهو من السرف وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، وأن العبد لن يهلك حتي يؤثر شهوته على دينه "[52]

وسار عمر سير أبو بكر في تشبيع الجيوش بالخطابة محرضاً على الجهاد ، حتى ينتشر الدين الجديد في أقطار الأرض وهو لن ينتشر إلا بالقوة التي تعز الحق وتعلى سلطانه إنها معركة الإسلام معركة النفوس المؤمنة التي وعدها الله أن ترث الأرض وما عليها . وما زال عمر يبرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق ويصحبوا قوة من قوات الخالق[53].

والخطبة موعظة رائعة في ذم الدنيا والترغيب في الآخرة وكل ذلك لما فيه من مواقف الترغيب والترهيب فيها نحوى من عبارات ذات معاني ودلالات إسلامية.

الخطابة في عهد سيدنا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما

أولاً : الخطابة في عهد سيدنا عثمان بن رضي الله عنه:

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشي الأموي ثالث الخلفاء الراشدين وموجد نسخ القرآن الكريم ، ولد في السنة السادسة من مولد النبي – صلى الله عليه وسلم– وآمن في السابقين الأولين ، بذل ماله الكثير في

([50]) سورة البقرة ، 249

([51]) المبرد ، محمد بن يزيد(د.ت) الكامل في الأدب ، دار الفكر العربي (ر، ت ، ط) عارضة وعلق عليه: محمد أبو الفضل ابراهيم، ج1، ص 390 .

([52]) السيد الهاشمي ، جواهر الأدب ، مرجع سابق، ص 574

([53]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق .

تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين وشهد مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كلها إلا بدراً ، وقد كان عمر قبل وفاته عهد إلى الخلافة إلى ست وهو منهم – تنتخب الأمة أحدهم خليفة فإنتخبوا بالشورى عثمان ، فأكمل مغازى عمر ، ثم ثار عليه بعض الأعراب بحجة إنه يؤثر أقربائه بولاية الأقاليم ، فحاصروه بداره في المدينة قتلوه وهو يتلوا القرآن الكريم سنة 35هـ وكان قتله سبب التفرق بين المسلمين وكانت مدة خلافته اثنا عشر سنة إلا اثنى عشر يوماً.

كان رحمه الله من بلغاء الخطباء ، وأوجزهم لفظاً ، وأجزلهم معني ، وأسهلهم عبارة[54].

كان يهبط درجة عن عمر وأبي بكر – رضي الله عنهما – في الخطابة والفصاحة والبيان ، ويروي أنه أرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : (إن أبا بكر وعثمان كان يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب.

وليس معني ذلك إنه كان يرتج عليه دائماً فقد كان يخطب وهو أشدهم كآبة ، فأتي منبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال: (إنكم في دار قلعة وفي بقية إعمار اصبحتم أم مسيتم إلا إن الدنيا طويت على الغرور اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تقفلوا ، فإنه لا يقفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثاروها وعمرو ها ومتعوا بها طويلاً ألم تلفظهم ! أرموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، وأطلبول الآخرة فإن الله ضرب لها مثلاً ، وللذي هو خير فقال عزوجل﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [55] وأقبل الناس يبايعوه ، ولما تمت البيعة العامة خطب في الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه : (أما بعد فأني حُملتُ وقد قبلتُ إلا وأني متبع ولست مبتدع ألا فأن لكم علي بعد كتاب الله عزوجل وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ثلاثاً : اتباع من كان قبلي في ما أجتمعتم عليه واسننتم واسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، الكف عنكم إلا فيما استوجيتم ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فنها ليست بثقة ، وأعلموا إنها غير تاركة إلا من تركها) [56].

إن هذه الخطبة في مجملها تدعوا إلى جذب الإنتباه بأن سيدنا عثمان – رضي الله عنه – هو الذي يطبق ما وجد من الدين على نهج الكتاب وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهي ثلاثة أمور يجب الأخذ بها أن يتبع ما كانت عليه الأمة الإسلامية من منهجية دينية صادقة ومن ثم الكف عن ما ليس فيه نهج الأمة الإسلامية ويحذرهم في اتباع الدنيا وإنها غير ثقة فلا تثقوا فيها ، وإنها غير تاركة إلا من تركها وهي دار لهو وعبور . ولما قدم المصريون إلى عثمان – رضي الله عنه – فطلبوا منه أن يرد الخلافة ويعتزل الأمر، خطب فيهم قائلاً : (الحمد لله أحمده واستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

(أما بعد فإنكم لم تعدلوا في المنطق ، ولم تنصفوا في القضاء أما قولكم : تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمصنيه الله عزوجل وأكرمني به ، وخصني به على غيري ، لكني أتوب وأنزع ولا أعود لشئ عابه المسلمون ، فإني والله الفقير إلى الله الخائف منه)[57].

([54]) السيد الهاشمي ، جواهر الأدب ، مرجع سابق، ص 117 .

([55]) سورة الكهف، الآية 45 .

([56]) الطبري، تاريخ الأمم الملوك ، ص 692.

([57]) الطبري ، تاريخ الأمم الملوك ، ص 193.

ومن هذا تعلم بأن سيدنا عثمان بن عفان قد ملأ النفوس بمواعظه وذلك على شاكلة قوله في آخر خطبة خطبها (أما بعد ... فإن الله عزوجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطيكموها لتركنوا إليها – الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فأثروا ما بقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منفطمة ، وإن المصير إلى الله ، إتقوا الله عزوجل فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده وأحذروا من الله الغير وألزموا جماعتكم، ولا تصيروا أحزاباً " ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ ﴾ [58].

بالرغم من إمتحانه في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه بل ظل صابراً يدعو الناس إلى أن لا يحدثوا فتق هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم ألا تبطرهم الدنيا كما رأينا في الخطبة ، وقد إمتازت خطبته – رضي الله عنه – بجزالة المعني وسهولة العبارة وهذا بالإضافة إلى الإيجاز في اللفظ [59].

ثانياً : الخطابة في عهد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه :

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين ، ولد رحمه الله بعد حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باثنين وثلاثين سنة ، وهو أول من آمن به من الصبيان وكان شجاعاً لا يشق له غبار ، شهد الغزوات مع النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا غزوة تبوك، وأبلى في نصرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ما يبله أحد ، وبويع بالخلافة في الغد من قتل عثمان بن عفان بالمدينة[60]

فأخذ معاوية بن أبي سفيان يؤلب بني أمية عليه وإنضمت إليهم عائشة وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام، فأنتصر على طلحة وعائشة والزبير بن العوام ، ودخل مع معاونة في حروب صفين، ثم كانت خدعة التحكيم ، فخرج عليه فريق من جيشه ، فإضطر إلى حربه وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر[61] وعاد إلى الكوفة يستعد إلى حرب عدوه فقتله عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم وهو في مسجد الكوفة سنة 40 هـ.

وكانت مدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر وكان رحمه الله أفصح الناس ، بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأكثرهم علماً ، وزهداً ، وشدةً في الحق ، وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم[62].

ولما أريد على البيعة بعد قتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه– خطب فقال: (دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أقامت والمحجة قد تنكره، وأعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فإنا كاحدكم ولعلي اسمعكم واطعكم لمن وليتموه أمركم .وأنا لكم وزيراً خير لكم من أميراً [63].

الخطبة توضح زهده – رضي الله عنه– في خلافة المسلمين ولا يريد أمر التكليف خوفاً من الإخفاق

([58]) سورة ال عمران ، الآية 103

([59]) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب ، ص 118 .

([60]) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب، ص 322.

([61]) السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، مرجع سابق، ص 118 .

([62]) الشيخ محمد عبده ، شرح نهج البلاغة ، مج2، مرجع سابق، ص 180 .

([63]) المرجع السابق ص 183 .

وشتان الأمة وهذا يوضح زهده وخوفه على المسلمين من الضياع وحدوث الفرق والقيلة والقال التي تكثر العتاب بين أفراد المجتمع المسلم وإن تولي أمرهم سوف يكون عليهم صعب لا يسمع إلا الحق فيهم فقط . حيث استخدم في ذلك عبارة بعيدة عن التكلف وصنعه المقالة وألفاظ السجع والبلاغة المصنوعة .

ومن خطبه الشهيرة خطبته بعد التحكيم حيث خطب بعد أن حمد الله وأثنى عليه قائلاً : (الحمد لله وإن أتى الدهر ، بالخطب الفادح والحدث الجلل وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره وأن محمداً عبده ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد ..

فإن معصية الناصح الشفيق ، والعالم المجرب تورث الحيرة وتعقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلت كلم مخرون رأي لو كان يطاع لقصير[64] أمر فإبيتم علي إباء المخالفين الجفاة المنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصح ، وخنث الزند بقدحه وكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد [65]

فهو في الخطبة يستشهد بالأمثال من أقوال العرب مدعماً لموقفه ولما إنتهى إليه ، أن خيلاً لمعاوية وردت الأنباء فقتلوا عاملاً له ، يقال له : حسان بن حسان ، فخرج مغضباً يجر ثوبه حتى إنتهى إلى النخيلة ، وأتيه الناس ، فرقى رباوة من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه – صلى الله عليه وسلم – ثم قال : (أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء ولزمه الصغار وسسيم الخسف ومنع النصف الا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوماً قط في عقر دارهم ألا زلوا فتواكلتم وتخاذلتم – وثقل عليكم عليكم قولي – واتخذتموه وارائكم ظهرياً ، حتى شنت عليكم الغارات وهذا أخو ا غامد قد وردت خيلة الأنبار وقتل حسان – أو ابن حسان البكري [66].

وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينزع حجلها وقبلها ورعاتها ثم انصرفوا وأخرين ما كلم رجل منهم كلاماً ولو أن أمرؤ مسلم مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به عندي ملوماً ، بل كان به عندي جديراً فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم هدفاً يرمي ، وفيئاً ينتهب يغادر عليكم تغيرون، وتغيرون ، ولا تغزون ، ويعصي إليه وترضون ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرب قلتم حمارة الغيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا ينسلخ عنا القر كل ذا فراراً من الحر والقر. وإذا كنتم من الحر والقر تفرون فإنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه

([64]) قصير هو مولي خزيمة الأبرش كان حازقاً وقد أشار علي سيده خزيمة أن لا يأمن للزباء ملكة الجزيرة فخالفه فقصدها اجابة على دعوته الي زواجه فقتله ، فقال قصير لا يطاع لقصير أمر فذهبت مثلا – انظر في ذلك الدكتور محمد عبد القادر أحمد – دراسات في أدب ونصوص العصر الاسلامي – ص 80 الهامش.

([65]) السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب ، مرجع سابق، ص 119

* قصير هو مولي خزيمة الأبرش كان حازقاً وقد أشار علي سيده خزيمة أن لا يأمن للزباء ملكة الجزيرة فخالفه فقصدها اجابة على دعوته الي زواجه فقتله ، فقال قصير لا يطاع لقصير أمر فذهبت مثلا – انظر في ذلك الدكتور محمد عبد القادر أحمد – دراسات في أدب ونصوص العصر الاسلامي – ص 80 الهامش.

([66]) المبرد، الكامل، مرجع سابق، ص 117 .

الرجال ولا رجال ويا أحلام الأطفال ، وعقول ربات الحجال ، وددت أن الله قد أخرجني من بين ظهرانكم وقبضني إلى رحمته من بينكم والله لو ددت إني لن أركم ــ، ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً قد وريتم صدري غليظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً وافسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : ابن أبي طالب شجاع ولكن لا أعلم له بالحرب. لله أبوهم ! وهل منهم أحد أشد لما مراساً وأطول لها تجربة مني؟ تعد مارستها وما بلغت العشرين ، وهاانذا قد تبفت على الستين ولكن لا أري لمن لا يطاع"[67].

والواضح من هذه الخطبة التي خطبها سيدنا علي – رضي الله عنه – هي التي تعظم من شأن الجهاد ، ثم تحدثه عن إغارت خيلمعاوية على الأنبار وقتل حسان وللأسف في هذا الوضع المخجل ، كما تبين الثقافة القرآنية والأدبية ، والتي تظهر في استشهده – رضي الله عنه – بأي الذكر الحكيم وكلام العرب شعراً ونثراً.

أما الملامح الجمالية لهذه الخطبة فتظهر و تتجلى في استخدامه – رضي الله عنه – للسجع (سيم الخسف ومنع النصف) كما استخدم الجناس (تغذون وتغدون) والترادف حلم وعقول والتضاد (الحر والبرد والصيف والشتاء ، الليل والنهار ،السر والعلن) .

فقام له رجل من الازد يقال له فلان بن عفيف ثم أخذ بيد أخ له فقال : يا أمير المؤمنين أنا وأخي هذا كما قال الله تعالى " إني لا أملك إلا نفسي... "

فمرنا يأمرك فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الفضا وشوك القتاد، فدعا لهما بالخير ثم قال : (أين تقفان مما أريد) [68] .

ومن عيون خطبة خطبته في ذم الدنيا التي قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وأن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بإطلاع . إن المضمار اليوم السباق غداً . ألا وإنكم في أيام أمل من وراءه أجل ، فمن أخلص في أيام امله قبل حضور أجله ، فقد نفعه علمه، ولم يضره عمله ، وضره أمله . ألا فأعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة . ألا وإني لم أرى كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها ، ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ولم يستقيم به الهدي يجر به الضلال . ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ، ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم إتباع الهوي وطول الأمل [69].

إن الخطبة موعظة رائعة توضح إدبار الدنيا وإقبال الآخرة ، وتدعو للخلاص في العمل ، وكل ذلك يريد النجاة بالأمة الإسلامية والدعوة إلى الوحدة ، وعدم التشتت والفرق ، أن الخطبة من النواحي الجمالية قد استخدم الترادف والرغبة والرهبة ، الجنة والنار، الحق والباطل .

وكل ذلك ترغيب في التمسك بالدعوى إلى الله وإفراده بالعبودية لأن الدنيا ليست دار مقر وإنما هي مدخل يعبر به الإنسان إلى دار الخلود وهي الجنة وما فيها نعيم مقيم .

وخطب علي بن إبي طالب لما خاطبه العباس وأبو سفيان في أن يبايعا له بالخلافة فقال : (أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المنافرة ، وصفوا عن تيجان المفاخرة أفلح من نهض بجناح ، واستسلم فأراح ، هذا ماء أجن ولقمة يقصُ بها آكلها ، ومجني الثمرة قبل وقت إيناعها ، كالذرع بغير أرضه فإن أقل يقولوا أحرص على الملك وإن أسكت يقولوا جزع من الموت هيهات بعد اللتيا والتي والله لإبن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمة ، بل اندمجت على مكنون علم ولو بحث بخ

([67]) الجاحظ، البيان والتبيين، مج2 ، ص 54.

([68]) أبو الفرج الاصفهاني(1955م) الأغاني، دار الثقافة، بيروت.

([69]) الجاحظ ، البيان والبنين ، مج2 ، مرجع سابق، ص 35 .

لأضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة " [70].

وقد ساعدت عوامل كثيرة على فصاحة الأمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وبلاغته ونبوغه في فن الخطابة قد تهيأ له استعداد فطري من قريحة مبدعة وذهن صافي وذكاء مستوقد ، ووعي نابه وطبع عربي أصيل ، كما ورث الفصاحة من بني هاشم المشهود لهم بالفصاحة واللسن، وقوة البيان ورعة المنطق ، كما تعلم وتربى في بيت النبوة وفي كنف الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو أفصح الناس أسلوباً وأبينهم عبارة ، وأحكمهم منطقاً ، وقد أعطى جوامع الكلم ، وأوتي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم والأمثال والحكم العربية ، هذا بالإضافة إلى دخوله معترك الصراع بين الكفر والإيمان حيث تقرع الحجة الحجة – يرفع الراي.

وقد تكون لديه خبرة واسعة لأنه كان من السابقين الأوليين في الإسلام ، وشاهد بناء صرح دولته ، وشارك في ذلك بسيفه ولسانه ، واضطلع بأعباء كثيرة أيام خلافته أبو بكر وعمر .

يضاف إلى ذلك كثرة الأحداث التي توالت على الدولة الإسلامية بعد مقتل عثمان – رضي الله عنه – وما صاحب ذلك من كثرة الحوار والجدل مع خصومه وأنصاره[71].

وقد عالج الإمام على – رضي الله عنه – في خطبته شتي الشئون الدينية والحربية والسياسية والاجتماعية وهو تارة يذهد الناس في الدنيا ويحثهم على الاستفادة بما فيها من عبر وعظات ، وتارة يوصي الجند بما يجب التحلي به في ميادين القتال ومعاملة الأعداء، ويحذرهم من خداع الخصوم ، وأحياناً يثير الحمية والحماسة في نفوس المسلمين ويحثهم على الثبات في مواجهة الأعداء ويقنع الخارجين عليه من جنوده ، ويدعوهم للحفاظ على الجماعة ويظهر ألمه لما أصابه من فرقة وتمزق، ويوضح لإتباعه نهجه السياسي أو يشرح لهم خطة من خططه ومن خطبه في حث أصحابه على الجهاد وقتال جند معاوية قوله :(عباد الله ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا عن الآخرة بدلاً ؟ والذل والهوان من العز خلفاً؟ لله أنتم ! تكادون ولا تكذبون، تنتقص أطرافكم ولا تمتنعون ولا ينام عليكم وأنتم في غفلة ساهون ، إن أخا الحرب اليقظان ذو العقل – وبات لذل من وداع وغلب المتخاذلون ، والمقلوب مقهور سلوب ، أما بعد : فإن لي عليكم حقاً وإن لكم عليّ حقاً ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم ، كي لا تجهلو وتأديبكم كي ما تعلموا ، وأما حقي عليكم الوفاء بالبيعة والنصح لي في المغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين أدعوكم والطاعة حين أمركم ، فإن يرد الله بكم خيراً تنزعوا عما أكره وترجعوا إلى ما أحب ، تنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون" [72].

من المؤكد أن النص الأدبي الذي يصبح – بسبب أهميته مستقلاً : قائماً بذاته بعد تجاوز ظرفه هو في حقيقته تعبير عن طبيعة سيدنا علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– كانت مقدرته على اللغوية والبيان ، نجد أن كان يريد اصابة المعني دائماً – بسبب نظرته الفلسفية ، وأفكاره الجمة التي كان يصارع من أجل إنتشارها ونظراً إلى تعدد مناحي الثورة الفكرية

([70]) السيد الهاشمي ، جواهر الأدب ، مرجع سابق ، ص 119 .

([71]) محمد عبد القادر أحمد ، دراسات في ادب ونصوص العصر الإسلامي، ص 78 .

[72] – المرجع السابق، ص 78 .

، وغني طبيعة على بن أبي طالب ، فإن النص جاء محملاً بالدلالات الفنية المنتوعة فهو قمة تتويج العلاقة الحرة بين المعني والمبني .

ومن سمات الخطابة في هذا العصر إنه من الواضح من كل ما قدمنا كيف ارتفعت الخطابة وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم إلى ما فيه كما لهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ثم أخذت ميادينها تتسع بإتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، ثم تشعبت منذ فتنة سيدنا عثمان شعباً كثيرة ، فمنها ما يتصل بالمناظرة والأراء السياسية وهي في كل ذلك تستمد ما دتها من القرآن الكريم وخطابه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي يمكن أن نقول ما يميز خطبه – صلى الله عليه وسلم – لم تكن خطب مواعظ فحسب، بل تشريعاً وتنظيماً للحياة ، ومن المؤكد أنه في خطابته لا يستعين بخلابة ولا تزويف ، وقد برئت ألفاظه من الأغراب والتعقيد والاستكراه وهي مع هذا ألفاظه جزله لها بهاء ورونق تعمر بها القلوب وترتاح إليها الأسماع ، ولم تكن يستخدم السجع في خطابه – صلى الله عليه وسلم – بل كان ينفر منه لإستخدام الكهان له في الجاهلية[73].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، لقد تم بحمد الله وتوفيقه هذا البحث والذي اهتم بالخطابة في صدر الإسلام، الذي تناول الخطابة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الخلافة الراشدة، حيث كانت أداة للدعوة، ساعد على ذلك بيان الرسول صلى الله عليه وسلم– وبلاغته وما اتخذه الخلفاء الراشدين من براعة وأسلوب ناجح للوصول للهدف نفسه وهو الدعوة إلى دين الله.

ومن خلاله وصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

1. إن الجمل المستخدمة في خطب صدر الإسلام واضحة الصياغة ليس فيها تكلف في صناعتها.
2. حظت النصوص الخطابية في صدر الإسلام بالعديد من القيم الجمالية والأدبية.
3. ترقي الصور الجمالية والبيانية حد الاعجاز العلمي لبلاغة النبي – صلى الله عليه وسلم.
4. يلاحظ على أسلوبها الايجاز وهي خالية من السجع المتكلف.

المصادر والمراجع:

1. شوقي ضيف(د.ت) تاريخ الأدب العربي، المجلد الثاني.
2. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(1988م) تاريخ الأمم والملوك ، ج2 ، ط2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان.
3. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر(د.ت) البيان والتبيين ، ج2 ، دار الجيل ، بيروت.
4. الشيخ محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.
5. عزالدين على السيد، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية.
6. القزويني، التلخيص في علوم البلاغة ، شرح وتحقيق: عبد الرحمن البر قوني، الطبعة الثانية.
7. محمد محي الدين عبد المجيد ، الايضاح في علوم البلاغة .
8. كمال الدين الزمكاني، البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن الكريم.
9. مصطفي صادق الرفاعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية.
10. زهر الأدب ، الحضري أبو اسحاق، المجلد الأول.
11. السيوطي، عبد الرحمن بن أبو بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولي، د.ن.

[73] – المرجع السابق ، ص 78 .

12. المبرد ، محمد بن يزيد(د.ت) الكامل في الأدب ، دار الفكر العربي (ر، ت ، ط) عارضة وعلق عليه: محمد أبو الفضل ابراهيم، ج1.
13. أبو الفرج الاصفهاني(1955م) الأغاني، دار الثقافة، بيروت.
14. محمد عبد القادر أحمد ، دراسات في ادب ونصوص العصر الإسلامي.